GENÇ MÜTEFEKKİRLER DERGİSİ

JOURNAL OF YOUNG INTELLECTUALS

e-ISSN: 2718-000X

Yıl: 5, Cilt: 5, Sayı: 2

Haziran-2024

MAKALE BILGILERI

Peygamberlerin Kur'an-ı Kerim'deki Dualarının Edebi Özellikleri

Literary Features Of The Prayers Of The Prophets İn The Holy Quran

السمات والخصائص الأدبية لدعاء الأنبياء في القرآن الكريم

YAZAR

Moulay el Hassan EL HAFIDI

Dr. Iğdır Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü

Arap dili ve Belağatı Bilimleri Anabilim Dalı

hassanhafidi6@gmail.com

ORCID: 0000-0002-1192-4941

https://doi.org/10.5281/zenodo.11531872

Yayın Bilgisi

Yayın Türü: Araştırma Makalesi

Makale Geliş Tarihi: 30.05.2024

Makale Kabul Tarihi: 10.06.2024

Sayfa Aralığı: 580-601

ÖZET

Peygamberler (sav) gönderildiğinde Allah (cc) onları mucizelerle desteklemiş ve onlara misyonlarını yerine getirebilmeleri için dua silahını ilham etmiştir. Kavimlerine hidayet, düşmanlarına karşı zafer ve diğer amaçlar için her şartta Cenab-ı Hakk'a nasıl dua edileceğini bize öğretmek için iyi günde de, kötü günde de Cenab-ı Hakk'a dua etme ihtiyacı duymuşlardır. Onların (sav) duaları bizim için kendilerinden nasıl faydalanmamız, Yüce Rabbimiz ile nasıl muamelede bulunacağımız, onların, Allah (cc) huzurunda nasıl durup O'na dua ederek teslim olduklarını öğrenmemiz için bir fırsat olmuştur.

Dua, türüne ve ihtiyacına göre değişen pek çok farklı şekilde ortaya çıkmıştır. Bu araştırmada, duanın bazı usullerini ve onlardan dilsel ve yorumsal olarak neler öğrenilebileceği ele alınmıştır. Duada takdîmin bir anlamı vardır, te'hîrin bir faydası vardır, marife kılınan şeylerden hükümler çıkarılır, nekire olanlardan da faydalar elde edilir. Bu şekilde duanın birçok hikmeti vardır.

Bütün bunların amacı, edebiyat camiasının uzun süredir gözden kaçırdığı bir sonucu kanıtlamaktır. O da bu nesir türünün edebiyat alanına dâhil edilmesi gerektiğidir. İlginç üsluplara sahip zengin bir edebi tür olduğunu kabul etmekten kaçış yoktur. İster iyi ve dakik ifade gibi edebî olsun, ister takdîm, te'hîr, ta'rîf, tenkîr, umum, ibhâm üslupları gibi retorik olsun gözden kaçırılmamalıdır.

Anahtar kelimeler: Arap Dili, Dua, peygamberler, üslup, Takdim ve tehir, Tarif ve tenkir.

ABSTRACT

When the prophets were sent, Allah supported them with miracles and inspired them with the weapon of prayer so that they could fulfill their mission. They felt the need to pray to God Almighty in good times and bad times to teach us how to pray to God Almighty in all circumstances for guidance to their people, victory over their enemies and other purposes. Their prayers have been an opportunity for us to learn how to benefit from

them, how to deal with our Almighty Lord, and how they stand in the presence of Allah and submit to Him by praying.

Prayer has emerged in many different forms, depending on its type and need. In this research, some methods of prayer and what can be learned from them linguistically and interpretively are discussed. In prayer, presentation has a meaning, postponement has a benefit, provisions are derived from things that are made known, and benefits are obtained from things that are made obsolete. There is a lot of wisdom in praying like this.

The point of all this is to prove a conclusion that the literary community has long overlooked. That is, this prose genre should be included in the field of literature. There is no escaping the recognition that it is a rich literary genre with interesting styles. Whether it is literary, such as good and punctual expression, or rhetorical, such as the styles of introduction, te'hîr, description, tankîr, umum, ibham, it should not be overlooked.

Key Words: Arabic Language, Prayer, prophets, style, Presentation and postponement, Description and criticism.

الملخص

عندما بُعث الانبياء أيدهم الله بالمعجزات و ألهمهم سلاح الدعاء لإعانتهم على تأدية رسالتهم، وقد احتاجوا –عليهم السلام– أن يدعوا الله عز وجل في سرائهم وضرائهم، كي يطلبوا الهداية لأقوامهم، والنصر على أعدائهم، وغيرها من المقاصد، وحتى يعلّمونا كيف ندعو الله تعالى في جميع أحوالنا، فكان دعاؤهم عليهم السلام فرصة لنا كي نستفيد منهم ونتعلم كيف نتعامل مع رب العزة، وكيف وقفوا بين يديه متضرعين خاضعين له.

وقد جاء الدعاء في صيغ كثيرة ومتعددة اختلفت حسب نوع الدعاء والحاجة إليه، وفي هذا البحث تناولت بعض أساليب دعائهم عليهم السلام، وما يُستفاد منها لغويا وتفسيريا، فالتقديم له معنى، والتأخير له فائدة، والتعريف تُستنبط منه أحكام، والتنكير يستخرج منه فوائد، وهكذا..

أما المُبْتَغى من كل ذلك، فهو إثبات نتيجة لطالما تغافل عنها جمهور الأدباء، وهي أن هذا النوع من النثر لا بد من إدخاله ضمن مجال الأدب، ولا مفر من الاعتراف أنه شكل أدبي ثري بما فيه من أساليب شائقة، وجب عدم إغفالها، سواء كانت أدبية، من حسن سبك ودقة عبارة، أو بلاغية من تقديم وتأخير، أو تعريف وتنكير، أو عموم وإبهام، وغيرها من الأساليب البلاغية التي تعتريه.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية، الدعاء، الأنبياء، الأسلوب، التقديم والتأخير، التعريف والتنكير.

مقدمة

لم يتم التعامل مع الدعاء على أساس أنه نوع أدبي يتميز بمعايير معينة لدراسته، وإنما تتم دراسته من خلال الفن الأدبي الذي أتى مندرجا في نصوصه، وعدم اهتمام الأدباء به، وإهماله وعدم إدراجه ضمن خانة الأدب، مما أدى إلى ندرة الدراسات الأدبية المتعلقة به، حيث لا يعد الدعاء غرضا مستقلا في المنتوج الأدبي، وإنما كان يأتي مبثوثا داخل نصوص الفنون المعروفة شعرا أو نثرا كان، ولم يتم التعامل معه على أساس أنه ظاهرة فنية قائمة بذاتها. وقد عده بعض الباحثين امتدادا للزهد، وظل الدعاء ملازما لخواتم النصوص والخطب ونهايات القصائد، وفي استهلالها أحيانا، ثم تطور في سياق نصوص الزهد والتصوف والمؤلديات والتوسّلات ومجالس الذكر والمواعظ والمناجاة في الخلوات.

ولم أصادف حسب اطلاعي المتواضع دراسة وافية وشاملة تُعنى بدراسة الناحية الأدبية لدعاء الأنبياء، بل وجدت أن أغلب الدراسات تناولت موضوع الدعاء من الناحية الدينية، مبينة أهميته وفضله وأنواعه.. وحتى التي تناولت الناحية الأدبية لم تتناول الناحية الأسلوبية، وفي حالة إذا ما تناولتها فهي تقتصر على الدعاء عند بعض الأنبياء وهكذا. لذلك سأسعى من خلال هذه الدراسة إلى استكشاف الخاصيات الجمالية للدعاء الأنبياء، وسأحاول الولوج إلى عالم الشعور الإنساني الأصيل المرتبط بالدين من الناحية العقدية والنفسية، مبرزا مدى جمالية عباراته وأفكاره، وأبين العلاقة التي تربط بين قالب الدعاء وجوهره، موضحا الصورة الفنية التي تطبع في نفس قارئ الدعاء.

كما أحاول أن تكون الدراسة تحليلية، عبر دراسة العبارات والألفاظ المكوِّنة لنص الدعاء، أو شكله ومضمونه، لكونهما العنصرين الأساسيين لأي عمل أدبي، الذي لا يتم المبنى، ولا يكتمل المعنى إلا بتلاحمهما، لأن علاقة تلاحم المبنى والمعنى كعلاقة الجسد بالروح، حيث العمل الأدبي يزول معناه إذا أزيل مبناه، ويختفي جوهره إذا مُحي شكله، ويذهب مضمونه إذا سلخ عنه قالبه.

وسأقوم بالاستعانة بمؤلفات التفسير لتوضيح الآية القرآنية التي ورد فيها الدعاء موازيا أحيانا إذا اقتضت الحاجة لذلك التحليل الأدبي لها، إذ التعامل مع القرآن الكريم كنص أدبي معجز إعجازا فنيا وبيانيا لا ينقص من قدسيته، وذلك يحتاج إلى قراءة النص القرآني والتدبر في معانيه، كي يتمكن المستنبط من فهمه وفهم أفكاره وموضوعه العام، وذلك من أجل تذوق معانيه وفهمها، ثم الوصول إلى القيمة الأدبية والفنية للموضوع. ومن البديهي أن يمتلك الباحث من الأدوات الفنية ما يمكنه من التعبير عن أفكاره ورؤاه. ويجب أن يكون للباحث مخيلة تنبثق عنها ملحوظات واستكشافات تمكنه من الربط بين العناصر الفنية الخفية وتأخذ بيده في الكشف عن طبيعة العوامل الفاعلة في النص.

ولا يجد الدارس لنصوص الدعاء حرجا حينما يدّعي أن موضوع الدعاء يتسع لأكثر من بحث يُظهر ميزاته الأسلوبية، ويحدد ملامحه العامة، على وفق منهج موضوعي يتتبع بدقة وتفحص أساليبه ومقاصده على سعة انتشارها في النص القرآني.

وما أطمح إليه في هذا البحث هو دراسة الدعاء الذي جاء على لسان الأنبياء عليهم السلام، الذين كلفهم الله تعالى بتبليغ رسالاته، فجاهدوا وصبروا في سبيل ذلك، وذلك عبر دراسة آيات الدعاء من حيث تنوع وفصاحة لفظها، وبلاغة معناها، وإبداع أسلوبها، وبراعة بيانها، مع ما لها من خصائص أدبية من جهة أداء المعنى وحسن التعبير عنه، وقوته ودقته.

1. الأساليب

سأحاول هنا بيان بعض خصائص الأسلوب المتّبع في آيات دعاء الأنبياء في القرآن الكريم، والأدوات المستخدمة فيه، وهي أدوات متعددة جاءت مبثوثة في ثنايا القرآن الكريم، ثم أهتم بالتراكيب المكونة لآيات دعاء الأنبياء، ولكي أتناول هذه الأمور لابد أن أدرس الأساليب وأوضح مظاهر الجمالية فيها، وأن أشتغل كذلك على الألفاظ المستعملة في صيغ الدعاء، وأجلّي بعض مظاهر السبك اللغوي فيها اعتمادا على كتب التفاسير، لاستخلاص المعاني والأفكار التي تدل عليها.

1.1. أساليب دعاء الأنبياء

الأسلوب في اللغة هو الطريقة، قال الجرجاني: "الأسلوب بمعناه العام هو"طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير أو الضرب من النظم والطريقة فيه". (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: الشيخ محمد رشيد رضا، بيروت، 1988، ص: 361.) والذي يجعل الأسلوب متميزا أن تكون ألفاظه وجمله وتراكيبه واضحة لا غموض فيها ولا احتيال، لأن الغاية منه هي إقناع القارئ بالفكرة التي يريدها الكاتب، وتُشترط فيه شروط لكي يكون مقبولا.

ويهتم الباحثون في الدراسات اللغوية بطرائق تركيب الكلام في كل لغة، عبر دراسة أساليب اللغة في ربط أجزاء الجملة، وربط الجمل بعضها ببعض، والعلاقة أو الصلة التي تربط بينها وبين ما يقابلها من الدلالات والمفاهيم، وهو ما يُعرف بنظم الكلام في اللغة العربية. "وهذه المباحث موزّعة في اللغة العربية بين علم النحو والمعاني، فبحث تقديم الخبر على المبتدأ من أبحاث النحو تدخل في هذا الباب، وبحث التقديم والتأخير في علم المعاني، والإطناب والإيجاز والقصر، ومواطن الحذف والذكر وغير هذه، من الأبحاث تدخل في باب نظم الكلام". (محمد المبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن، 1998، ص: 135.)

وقد كان الهدف من اعتناء أهل الفن والأدب بدراسة نظم الكلام وأساليب تركيبه تلمّس الجمال الأدبي في تلك الأساليب وإبراز روعة ودقة تركيب الألفاظ للدلالة على الموضوع المراد التعبير عنه.

وإذا كانت الجملة هي الوحدة الأساسية للكلام عند النحاة، فإن الآية هي الوحدة التي يتألف منها النظم القرآني، ولذلك فهي مختلفة عن الجملة، لكونها الوحدة الفنية واللبنة الأساسية التي يتألف من أمثالها صرح هذه المعجزة البيانية الإلهية، التي هي القرآن الكريم.

وسأحاول هنا دراسة الأساليب التي جاءت بها آيات دعاء الأنبياء في القرآن الكريم، وأقصد بالأساليب التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير وغيرها. وقد تكون الآية جملة تامة، وقد تكون جزءا من جملة، أي إن الجملة تتألف من عدة آيات، وقد تأتي الآية الواحدة في جمل متعددة.

1.1.1. التقديم والتأخير

يُعد التقديم والتأخير جزءا كبيرا من أجزاء عِلمي النحو والمعاني، يصيب الجملة العربية فتخالف ترتيبها الأصلي في السياق، ويعتبر سيبويه من النحاة الأوائل الذين أشاروا إلى ظاهرة التقديم والتأخير في كتابه، حيث قال: "فإن قدمت المفعول وأخّرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: "ضرب زيدًا عبدُ الله". لأنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدما،

ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان مؤخرا في اللفظ.. فمِن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدما، وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أغنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم". (أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، 1988، ج: 1، ص: 34.)

وجاء إمام البلاغيين الشيخ عبد القاهر الجرجاني، فاهتم بالتقديم والتأخير اهتماما فائقا، وأبرزه للوجود، وأثنى عليه بقوله: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر ذلك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان". (الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 106.)

ويتميز القرآن الكريم بألوان مختلفة من الأوجه البلاغية المعجزة، والتقديم والتأخير أحدها، حيث جاء متنوعا بين تقديم المفردات على بعض، أو تقديم أجزاء الجملة الواحدة على بعض، أو الجمل بعضها على بعض.

1.1.1.1. تقديم بعض المفردات على بعض

إن ألفاظ القرآن الكريم عامة، بما تشمله من ألفاظ الدعاء، جاءت متناسقة تامة، وفي ترتيبها على هذا الوجه أسراره الدقيقة، التي تحمل في ثناياها سر ذكر اللفظة مقدمة على غيرها، مما يثير في النفس تساؤلا عن سر هذا التقديم وأثره في المعنى، ومن الألفاظ التي تَقدم بعضها على بعض في دعاء الأنبياء، ما جاء على لسان موسى عليه السلام في دعائه، في قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: 156)، حيث وردت في هذه الآية لفظة "الدنيا" مقدمة على لفظة "الآخرة"، وذلك لبيان أن الدنيا دار العمل، والآخرة دار الجزاء، ومصير المؤمن متعلق بما يقدمه في دار العمل، والحسنة في الدنيا هي العافية في الدين والدنيا، ولأن الإنسان حي يعيش هذه الدنيا بمغرياتها فهو يدعو أن ينجيه من فتنتها، ويمكن القول كذلك أن التقديم هنا راجع إلى التقدم الزمني، فالدنيا قبل الآخرة.

وجاء أيضا في دعاء كل من سيدنا آدم ونوح وموسى عليهم السلام تقديم المغفرة على الرحمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: 23) و ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود: 47) و ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف: 155)، وذلك لأن المغفرة رحمة خاصة بالمؤمنين، في حين أن الرحمة تكون لعموم الخلق، ويدخل في رحمة الله المؤمن والكافر، فكلهم يعيشون في رحمة الله، حتى البهائم تعيش برحمة الله وتتراحم فيما بينها.

وفي دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام تقديم إسماعيل على إسحاق عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (إبراهيم:39) فقدم ذكر إسماعيل على إسحاق، وفي ذلك مراعاة للترتيب الزمني، فقد ولد إسماعيل قبل إسحاق، فقدم الأول في الوجود. ولولا الدلالة على الزمن لقدم إسحاق، لأن العجيبة فيه أخطر، حيث إن الحالة التي جاء فيها إسحاق كانت معجزة وعجيبة، لكونه جاء من أب بلغ حد الكبر ومن أم عجوز.

وفي طلب إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (البقرة: 126) الأمن والرزق مطلبان ضروريان لقيام المجتمعات وتكوين الحضارات، وقد قدم إبراهيم عليه السلام طلب الأمن على طلب الرزق، وهذا من باب تقديم السبب على المسبب، وذلك أنه "إذا كان البلد ذا أمن، أمكن وفود التجار إليه لطلب الربح" (أبو حيان محمد بن يوسف أثير الدين الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل، 1999، ج: 1، ص: 613) فالأمن إذًا سبب في حصول الرزق، لذا قُدم، وجاء اللفظ بعده موافقا له في المعنى، حيث

جعل الرزق من الثمار بدلا من الحبوب "لما في تعاطيها من الذل المنافي للأمن". (إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، د.ت، ج: 1، ص: 231).

وتقدمت الزينة على الأموال في الدعاء القرآني على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ (يونس: 88)، ولعل التقديم هنا راجع إلى معنى الزينة، فإن كانت "ما يتزين به من لبس أو حلي أو فرش أو أثاث أو غير ذلك، فهي من الزينة الظاهرة التي غالبا ما تبهر، بل قد تفتن أحيانا، أما الأموال فهي من الأمور المستترة والتي غالبا ما يظهر أثرها، لذلك قدم ما هو ظاهر على ما هو مستتر". (جار الله محمد محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، اعتناء :خليل مأمون شيحا، 1407، ص: 472).

أما إذا أريد بالزينة الزينة البدنية كالقوة وطول القامة (أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن (مادة زين)، ضبط: إبراهيم شمس الدين، د.ت، ص: 218) فالتقديم هنا من باب تقديم السبب على المسبب، ذلك أن هذه الزينة هي سبب في حصول المال.

ويلاحظ في دعاء آدم ونوح وموسى عليهم السلام تقديم المغفرة على الرحمة في قوله تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الاعراف:23) و ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود:47) و ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ (المؤمنون: 109)، وذلك لأن المغفرة رحمة خاصة بالمؤمنين، في حين أن الرحمة تكون لعموم الخلق، ويدخل في رحمة الله المؤمن والكافر، فكلهم يعيشون في رحمة الله، حتى البهائم تعيش برحمة الله وتتراحم فيما بينها.

وفي الآية الكريمة في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾ (الشعراء: 87-88) قدّم ذكر المال على البنين للاهتمام والعناية، وذلك أن المال أهم وأعنى في قضية الفداء، ولذلك جُعل أولا.

كما تم تقديم السموات على الأرض في قول سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف:101) لأن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض لسعتها وعظمها وما فيها من الأفلاك.

وفي تقديم التسبيح على الذكر في قول موسى عليه السلام: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (طه: 33) لأن التسبيح تنزيه عما لا يليق، ومحله القلب، والذكر ثناء وتمجيد، ومحله اللسان، فلذلك "قدّم ما محله القلب على ما محله اللسان". (أبو حيان، محمد بن يوسف أثير الدين الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر، 1999، ج: 1، ص: 225).

وكذلك الأمر في تقديم السموات على الأرض في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: 38)، حيث قدّم عليه السلام الأرض على السماء، لأن الطبيعي أن يبدأ كلامه بما فيه حياته ومعاشه، لا بما ليس له به علم.

2.1.1.1. تقديم بعض أجزاء الجملة على بعض

إذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض، فقد حرصت الجملة في القرآن أن يكون هذا التقديم مشيرا إلى مغزى، دالا على هدف، حتى تصبح الآية بتكوينها تابعة لمنهج نفسي يتقدم عندها فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير، "فيتقدم مثلا بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذي يدور حوله الحديث وحده، فيكون هو المقصود والمعني، والنفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنه، فلا جرم أن يتقدم في الجملة، كما تقدم في النفس". (أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، القاهرة، 1977، ص: 112).

وقد جاء في تقديم أحد المفعولين على الآخر في الدعاء القرآني على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي﴾ (طه: 29–30)، فقد تقدم (وزيرا) المفعول الثاني ل(اجعل) على (هارون) المفعول الأول، وذلك "لعظم أمر الوزارة ولاهتمامه بها" (الزمخشري، الكشاف، ج: 1، ص: 655) وعنايته بأمرها. وفي كلمة (اجعل لي) نجد كلمة (لي) متعلقة بوزير، والأصل وزيرا لي من أهلي، وإنما قُدم لأن مدخول اللام وهو ضمير المتكلم هو الأهم، لأنه هو المكلف بأمر الرسالة.

وجاء أيضا في دعاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: 80) قدم المجرورين على المفعول (سلطانا) و(نصيرا) وذلك "لإظهار الاعتناء بهما، وإبراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله، فإن تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه، كما يورث شوق السامع إلى وروده، ينبئ عن كمال رغبة المتكلم فيه، واعتنائه بحصوله لا محالة". (محمد بن محمد أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، تح:عبد القادر أحمد عطا، د.ت، ج: 3، ص: 202).

وجاء في دعاء زكرياء عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: 38)، وتأخير (ذرية) عن (لي من لدنك) لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقديم إذا أُخّر تبقى النفس متشوقة له.

3.1.1.1. تقديم المتعلق (الجار والمجرور) على الفعل.

جاء هذا النوع من التقديم في دعاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: 129)، وعلى لسان إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة: 4)، وكان في هاتين الآيتين بنفس حرف الجر(على)، وبنفس الفعل (توكلنا)، وجاء التقديم هنا للقصر، حيث في الآيتين كان الهدف منه قصر صفة التوكل على الله، وأنهم يتوكلون عليه وحده دون غيره، وهو قصر حقيقي من قصر الصفة على الموصوف، وفي الآية الثانية أيضا قصر الإنابة إلى الله، وهي"الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل" (أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن مادة (نوب)، ضبط: إبراهيم شمس الدين، د.ت، ص: 508) فالأنبياء قد قصروا توكلهم وتوبتهم ورجوعهم إلى الله عز وجل عليه وحده.

جاء تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في الآيات السابقة بقصد القصر، فهذا هو غرضه الأساسي الذي نلمح فور قراءتنا للآيات تحقق معناه، وجماله الذي أكسبه للآية، ذلك الجمال الذي يظهر في شدة إيمان هؤلاء الرجال وشدة تعلقهم بخالقهم الذي انساب على أفواههم بتقديم اسمه وضميره. والتوكل والإنابة أمران مهمان بالنسبة للمؤمنين دعا إليهما الرسول

الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم في قوله: "لو أنكم توكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتعود بطانا". (محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير، رقم الحديث: (2344)، ج: 4، ص: 573).

وجاء تقديم شبه الجملة (علينا) على قوله (مائدة من السماء) لإفادة التخصيص والقصر، في دعاء سيدنا عيسى: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ (المائدة: 114) أي: أنزل علينا لا على غيرنا، كما أن في هذا التقديم تشويقا إلى المؤخر الذي حقه التقديم، لأنه إذا أُخّر تبقى النفس متشوقة إلى معرفته.

4.1.1.1. تقديم المتعلق (الجار والمجرور) على الفاعل

وذلك في قوله تعالى على لسان سيدنا زكرياء عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (مريم: 4)، وقد جاءت كلمة (مني) في موضعها الدقيق الذي وجب أن تكون فيه، مما أضفى على نسق الآية نغما إيقاعيا متميزا، فلو قُدّمت كلمة (مني) على كلمة (العظم)، لكان هناك خلل في نغم الآية، ذلك أن هذه الكلمة في هذا الموضع الدقيق تتوازن إيقاعيا مع كلمة (إني) في صدر الآية، فهي بهذا تحقق انسجاما وتناسقا إيقاعيا، وأي تغيير في موضع الكلمة يُحدث خللا في الجرس والإيقاع والوزن والنغم.

5.1.1.1. تقديم الجار والمجرور أو الظرف على المفعول به

من الكثير جدا أن يتقدم الجار والمجرور أو الظرف على المفعول به، وهو طبعا لغاية يفرضها السياق، من ذلك ما نجده على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (طه: 25-26)، وقد جاء في كتاب الانتصاف من الكشاف أن الفائدة من ذكر (لي) الجار والمجرور مقدّما على المفعول به، للدلالة على "أن منفعة شرح الصدر راجعة إليه، فإنه تعالى لا يبالي بوجوده من عدمه، وقِس عليه (يسر لي أمري)". (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، حاشية الشهاب، تح: محمد الصباغ، 2000، ج: 6، ص: 198).

جاء هذا النوع من التقديم في آيات دعاء أخرى، منها حكاية عن الراسخين في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: 8)، تقدم (من لدنك) على المفعول به (رحمة) للاهتمام بالمقدم، فأهل الكهف في حاجة إلى رحمة خاصة تفيض عليهم من الله داخل الكهف، وذلك "أبلغ مما لو قالوا: آتنا رحمة، لأن الخلق كلهم بمحل الرحمة من الله، ولكنهم سألوا رحمة خاصة وافرة". (محمد بن الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 1984، ج: 15، ص: 266).

وعلى لسان زكريا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ (مريم: 5) حيث تقدم (لي)على (من لدنك) "لأنه الأهم في غرض الداعي، وهو غرض خاص يقدم على الغرض العام"، (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 16، ص: 67) وعلى لسان آسيا في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ (التحريم: 11)، ففي الآيات السابقة جاء التقديم للعناية والاهتمام بالمقدم.

وكذا تقديم الجار والمجرور (لنا) على (عيدا) بدل قوله: عيدا لنا في دعاء سيدنا عيسى في قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ (الْمَائِدَة:114) يفيد معنى القصر والاختصاص.

وفي دعاء شُعيب عليه السلام بعد أن عانده قومه وكذّبوه وتوعّدوه بالطرد والرّجم، توجه إلى الله داعيا ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (الأعراف: 89)، فتقديم الجار والمجرور (على الله) على الجملة الفعلية لإفادة التخصيص، وهو قصر إضافي، حيث قصروا توكلهم على الله وحده دون غيره.

وفي دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الشعراء: 83) جاء بتقديم الجار والمجرور (لي) على المفعول الصريح (حكما)، فبالإضافة إلى ما في هذا التقديم من سر التشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقديم إذا أخّر تبقى النفس مترقبة إلى وروده. وكذلك في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: 129) حيث قدّم الجار والمجرور (فيهم) على المفعول به (رسولا) لإرادة التخصيص ليكون المعنى أن تكون الرسالة فيهم لا في غيرهم.

وجاء على لسان سيدنا موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (طه: 35)، وقدم الجار والمجرور (بنا) على متعلقه (بصيرا) لإفادة التخصيص، "فالتقديم ينبئ عن إحساس موسى عليه السلام بعناية خاصة به تميزه عن غيره بمزيد عناية ورعاية". (محمد الأمين الخضري، من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية، د، ط، 1994، ص: 60).

2.1.1. التعريف

التعريف والتنكير من الظواهر المميزة للغة العربية، وهما مشاركان في بناء الجملة، من الناحية التركيبية والدلالية، فالمعرفة لها دلالة معينة، كذلك النكرة لها دلالتها الخاصة بها، ويعد التعريف والتنكير أيضا من أكثر المباحث البلاغية تنوعا وثراء التي لقيت اهتماما من طرف العلماء، حيث طبقوه على البيان العربي عامة، والقرآن على وجه الخصوص، "وهناك قاعدة في التعريف والتنكير وهي أن لكل منهما مقاما لا يليق بالآخر، وله أسباب: إرادة الوحدة، وإرادة النوع، والتعظيم، والتكثير، والتحقير، والتقليل". (عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، 1974، ج: 2، ص: 346-347).

والمتأمل للتعريف والتنكير في آيات الدعاء يجد التعريف بشتى صوره قد حظي بالنصيب الأكبر، لمجيئه في أكثر من ألف موضع، ثم يليه التنكير الذي جاء في مائة موضع تقريبا. (بهية بنت حامد اللحياني، الدعاء في القرآن الكريم أساليبه ومقاصده وأسراره، 2001، ص: 125).

وسآتي ببعض نماذج التعريف التي وردت في دعاء الأنبياء، في محاولة للتركيز على أدلتها في تحقيق ما أرادت بيانه، إذ قد تنوعت صور التعريف في دعاء الأنبياء عليهم السلام، وتفاوتت في كثرتها، حيث وردت على النحو التالي:

1.2.1.1. التعريف بالضمير

أكثر صور التعريف ورودا في الدعاء هو التعريف بالضمير الظاهر، كما جاء في هذا الدعاء التعريف بضمير الغائب (هو)، ففي الدعاء التعليمي للنبي محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: 129)، فذكره في الآية مرتين رغبة في الاختصار بإعادة ضمير الغائب (هو) على الله، فلا إله إلا الله وحده لا شريك له المتفرد بالألوهية رب العرش العظيم لا رب سواه، فهو الحقيق بالتوكل عليه والإنابة له.

ومن بين الضمائر الأكثر ورودا أيضا (ياء المتكلم)، فالداعي المنفرد نراه يخص نفسه بالدعاء طالبا من ربه استجابة دعائه، وتحقيق رجائه، ومن بين الأدعية التي ورد فيها ياء المتكلم في قوله تعالى مخاطبا النبي الكريم عليه السلام: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الإسراء:80).

وفي دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ (إبراهيم:40) أي: يا رب اجعلني من عبادك الذين يؤدون الصلاة في أوقاتها بإخلاص وخشوع، واجعل من ذريتي من يقتدي بي في ذلك، كما أسألك يا رب أن تتقبل دعائي ولا تخيبني في مطلوب أسألك إياه.

ووردت إضافة رب للضمير في أكثر آيات الدعاء، إذ لا تكاد تخلو منه آية، وقد جاء مضافا إلى ضمير المتكلم (الداعي المنفرد) في الآيات التالية:

جاء على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: 21)، وعلى لسان إبراهيم الخليل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات100)، وعلى لسان نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: 26).

فقولهم (ربِّ) الأصل فيه (يا ربي)، ولكن حُذفت منه ياء النداء وياء المتكلم لسر بلاغي في ذلك، وهو أن ياء النداء تُستعمل لنداء البعيد، والله تعالى أقرب إلى عبده من حبل الوريد، فكان مقتضى البلاغة حذفها، لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: 16)، ولقوله تعالى أيضا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: 186)، وكذا للتنزيه كما قال السيوطي: "كثر حذف (يا) في القرآن الكريم مع الرب تنزيها وتعظيما، لأن في النداء طرفا من الأمر". (السيوطي، الإتقان، ج: 3، ص: 189) إذن فإضافة (رب) إلى ضمير المتكلم المفرد فيها إشعار بالوحدة والإفراد في مناجاة الداعي لربه، وطلبه منه ما يصلحه.

2.2.1.1. التعريف بالعلمية

أكثر الأعلام ذكرا في آيات الدعاء التي جاء التعريف بها بالعلمية هي لفظ الجلالة (الله) نحو قوله تعالى تعليما لرسوله صلى الله عليه وسلم كيفية الدعاء ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: 129)، حيث إن الله هو المتلقي لهذا الدعاء يتجه إليه الداعون بقلوبهم يتلذذون ويتبركون بترديد اسمه سبحانه وتعالى.

وجاء على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ (إبراهيم: 39)، فذِكْر إبراهيم عليه السلام لولديه باسميهما مناسب لمقام الدعاء، حيث فيه إشارة منه أن من تفضل ومنّ عليه بولديه هذين مع ما كان عليه من الكبر، قادر على استجابة دعائه، وتحقيق مراده. و"ربما لأن المقام فيه إطناب، دل عليه طول هذا الدعاء، أو لأن في ذكره لهما نوع من التلذذ، فقد أُعطيهُما على كبر". (بهية اللحياني، الدعاء في القرآن الكريم، ص: 140).

3.2.1.1. التعريف (بأل)

للتعريف بأل في آيات الدعاء أسرار ولطائف عديدة، حيث أضفى على الكلمات التي جاءت معرّفة به حُسنا وجمالا بلاغيا فريدا، لا يرصد إلا في النظم القرآني المعجز، وقد جاء التعريف بأل في قوله تعالى: ﴿اهدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلمُستَقِيمَ﴾ (الفاتحة: 6)، فلفظة (الصراط) جاءت "مكملة بكلمة (أل)، لأنه الصراط الذي لا يَضِل بمهتديه، لإحاطته ولشمول سريانه، وفقا لشمول معنى الحمد في الوجود كله، وهو الذي تشتتت الآراء، وتفرقت الفرق، بالميل إلى واحد من جانبيه". (إبراهيم البقاعي، نظم الدرر، ج: 1، ص: 18).

أما في الأنبياء، فجاء على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: 35)، فدخول (أل) على (البلد) فيه "دلالة على العهد، أي مكة المكرمة شرّفها الله". (بهية اللحياني، الدعاء في القرآن الكريم، ص: 133).

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 127)، حيث عرّف (القواعد) بأل دون الإضافة (قواعد البيت)، فتعريف القواعد بالألف واللام للعهد، ذلك لأن البيت "كان

مؤسسا قبل إبراهيم، فبني على الأساس"، (الزمخشري، الكشاف، ج: 3، ص: 96) و"لأن في إبهام القواعد وتبيينها ما ليس في إضافتها، لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين". (الزمخشري، الكشاف، ج: 3، ص: 96).

وفي قوله تعالى أيضا على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾،(البقرة:129)، جاء التعريف في لفظي (الكتاب والحكمة)، وذلك للدلالة على أن هذا الكتاب هو "الكتاب الشامل لكل كتاب" (إبراهيم البقاعي، نظم الدرر، ج: 1، ص: 243) وهذه الحكمة هي الحكمة البالغة التي لا مثيل لها. ويراد بها السنة، فتعريفهما يفيد الاستغراق.

4.2.1.1. التعريف بالاسم الموصول

التعريف بالاسم الموصول هو "من أَشيع طرق التعريف، سواء في ذلك كلام الله سبحانه وتعالى وكلام الناس، وذلك لأنه مفرد متضمن جملة، ولذلك يتسع لكثير من أحوال المعرف". (محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب؛ دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، 1996، ص: 152) جاء في آيات الدعاء في مواضع متعددة، حيث يحمل في كل موضع دلالات اقتضاها السياق. وكمثال على التعريف بالصلة، جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ (إبراهيم: 39)، ففي التعريف بالاسم الموصول (الذي) دلالة على أن الذي يقدر على أن يهب الولد لِمنْ فقَدَ أسبابَ حصوله نتيجةً لِكبر سنّه أو عُقر زوجته، جدير بأن يُحمد ويثْنى عليه. فتعريفه بالموصولية للتوصل إلى هذا المعنى الذي له أهميته في سياق الكلام.

وجاء على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص:24)، نجد (ما) الموصولة هنا قد دلت على العموم، أي " أنني محتاج إلى أيّ شيء تُنزله إليّ وترزقني إياه من خزائن كرمك قلّ أو كثر". (شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 1994، ج: 20، ص: 64).

5.2.1.1. التعريف باسم الإشارة

جاء هذا اللون من التعريف قليلا في آيات الدعاء عموما، فقد جاء على لسان سيدنا إبراهيم في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾ (البقرة: 26)، فاسم الإشارة في الآية السابقة كسا المشار إليه حضورا وتمييزا، فكأننا نرى البلد ماثلة أمامنا.

وفي دعاء موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ﴾ (الأعراف: 156)، في التعبير باسم الإشارة الدال على القريب ما يُقوي المعنى فيُظهر شدة الالتصاق بين مشهد الدعاء وبين القارئ، وكأنه الناطق بهذا الدعاء.

3.1.1. التنكير

على الرغم من أن التنكير لم يكن بكثرة التعريف في آيات الدعاء، إلا أن للتنكير أسرارا ولطائف تنبع من ذات السياق، فتضفي على المعنى جمالا، وعلى العبارة إعجازا، ومن بين المعاني التي دل عليها التنكير في آيات الدعاء ما يلي:

1.3.1.1. التعظيم

من الآيات التي جاء فيها التنكير دالا على التعظيم قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ (المائدة:114) على لسان عيسى عليه السلام، فتنكير (مائدة) في هذه الآية دل على أن المائدة تمثل معجزة عظيمة تناسب عِظم نبوة عيسى عليه السلام.

وجاء أيضا في دعاء سليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص:35)، فتنكير (ملكا) في هذه الآية فيه دلالة على التعظيم، أي ملكا عظيما ينفرد به دون غيره.

2.3.1.1. التكثير

تأتي النكرة بهدف التكثير، كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم:37)، فتنكير (أفئدة) "مطلق يُحمل على الكثرة المتعارفة في عمران المدن والأسواق"، (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 12، ص: 242) وليست الكثرة مطلقا، بل هي كثرة تناسب المكان، ولذلك قال (من الناس). ويخبر بذلك تعالى ذكره عن خليله إبراهيم أنه سأله في دعائه أن يجعل قلوب بعض خلقه تنزع إلى مساكن ذريته الذين أسكنهم بواد غير ذي زرع عند بيته المحرَّم. وذلك منه دعاء لهم بأن يرزقهم حج بيته الحرام.

ويحتمل أن إبراهيم عليه السلام قوي في ظنه أنه إن دعا للكل، كثر في البلد الكفار، فيكون في غلبتهم وكثرتهم مفسدة ومضرة من ذهاب الناس إلى الحج ، فخص المؤمنين بالدعاء لهذا السبب. (الرازي، مفاتيح الغيب، ج: 4، ص: 51).

كما أتت النكرة على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (يونس: 88)، أي أموالا كثيرة وافرة. وزينة من متاع الدنيا يتزينون بها من أنواع الحلي والثياب، والبيوت المزخرفة؛ فلم يشكروا لك، وإنما استعانوا بها على الإضلال عن سبيلك.

وفي دعاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:144)، أي وعلما كثيرا بالقرآن، فكلما أُنزل عليه منه زاد به علمه.

3.3.1.1. التقليل

تدل النكرة أيضا على التقليل، ومن ذلك دعاء موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ (طه:29)، فلفظ (عقدة) يشير إلى عقدة من عقد (لساني)، "وفي تنكير العقدة -وإن لم يقل عقدة لساني-: أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهما جيدا، ولم يطلب الفصاحة الكاملة. ومِنْ لِساني صفة للعقدة كأنه قيل: عقدة من عقد لساني"، (الزمخشري، الكشاف، ج: 3، ص: 61) فقليل منها يكفي لإبلاغ الدعوة إلى فرعون.

4.3.1.1. العموم والإبهام

من بين المعاني التي دلت عليها النكرة في آيات الدعاء: العموم، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾ (نوح:28) وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة:201) جاء الدعاء في الآية الأولى شاملا لكل من اتصف بالإيمان وعمّهم، وفي الآية الثانية تنكير (حسنة) تدل على حسنة عامة جامعة لكل خير، حيث تدل على "عافية وحياة طيبة وتوفيقا في الطاعة". (الزمخشري، الكشاف، ج: 1، ص: 246).

ويمكن القول من خلال ما تقدم من الأمثلة:

أن صور التعريف أكثر شيوعا في آيات الدعاء، وجاء ذكر أسماء الأنبياء في آيات الدعاء لأنهم أكثر من دعا الله عز وجل، وفي ذلك إثبات بشريعتهم، فهم مع علو أقدارهم ومكانتهم عند أتباعهم، نراهم يتجهون إلى الله عز وجل في خضوع، يطلبون منه العون والرحمة. وفي آيات الدعاء الصادرة عنهم تعليما لمن بعدهم لفن الدعاء وآدابه، فهم القدوة والنبراس الذي يسير عليه أهل الإيمان.

كما تظهر كثرة الإضافة للفظ (رب)، وذلك لما في لفظ الربوبية من معاني التربية والتفضل والإنعام المناسب لمقام الدعاء.

وجاء التنكير بدلالات عدة أكثرها دلالة التعظيم وذلك لرغبة الداعين في كون ما يطلبونه عظيما.

4.1.1. الإفراد

حظيت آيات الدعاء كغيرها من آيات القرآن الكريم بنصيب من الألفاظ التي جاءت مفردة أو جمعا، حيث لها في كل حالة أسرار بلاغية وفوائد أسلوبية، وسأبرز بعض أسرار ونكات الإفراد في آيات دعاء الأنبياء على النحو التالي:

ومن الألفاظ التي جاءت بالإفراد في الدعاء على لسان الأنبياء عليهم السلام الرحمة، وهي لفظ رقيق دال على معناه، ورد في القرآن الكريم بالجمع وبالإفراد، وقد خُص الدعاء أن ذكرت فيه مفردة، لأن الدعاء في حد ذاته رحمة عظيمة، ونعمة بفضل الله وإحسانه على عباده.

وقد جاءت بلفظ (فِي رَحْمَتِكَ) على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأعراف:151)، حيث طلب موسى عليه السلام دخوله وهارون عليهما السلام في رحمة الله تعالى المراد بها الجنة، لأن رحمته سبحانه هي الوسيلة الحقيقية للفوز بالجنة.

ووردت لفظة (رحمة) مفردة في الآية السابقة، في حين جاءت في الدعاء القرآني عموما في أربع مواضع، على لسان من آمن بموسى عليه السلام بلفظ (برحمتك) في قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (يونس:86)، وفي دعاء سليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل:19)، وجاءت بلفظ (رحمة) في آيتين في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران:8)، وفي قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمرِنَا رَشَدا﴾ (الكهف:10).

ويظهر مما سبق أن إفراد الرحمة في الدعاء القرآني فيه دلالة على "أن رحمة من الله كافية لما يطلبه العبد، ومحققة كل ما تصبو إليه النفس". (سلامة جمعة، بلاغة الدعاء، ص: 26).

5.1.1. الجمع

جاءت ألفاظ عديدة في الدعاء بصيغة الجمع دون الإفراد، وهي في كل موضع من مواضعها تلك تؤدي معناها المراد الذي اقتضاه السياق، ومن تلك الألفاظ التي جاءت في آيات دعاء الأنبياء:

جاءت لفظة (همزات) في الدعاء مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (المؤمنون:97)، تعليما لنبيه عليه السلام كيفية التخلص من وساوس الشياطين. وقد وردت همزات بالجمع دون الإفراد (همزة) لبيان أن الشياطين لديهم طرق متنوعة يلجون من خلالها إلى أهل الإيمان، وفيه نوع من شد انتباه المؤمنين إلى ضرورة التيقظ والحذر في كل الأمور التي قد تكون مداخل لهؤلاء الشياطين. فهمزات توحي بأن خطر هؤلاء الشياطين يحيط بالمؤمن من كل جانب، فتعدد الجهات ناسبه جمع همزات. (بهية اللحياني، الدعاء في القرآن الكريم، ص: 206) وربما كان الجمع هنا في همزات لتعدد المضاف إليه وهم الشياطين. (محمد أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج: 6، ص: 150).

ووردت لفظة (الثمرات) في الدعاء على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام بعد أن ترك زوجه هاجر وابنه إسماعيل في واد غير ذي زرع، قال تعالى: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (إبراهيم: 37)، وفي موضع آخر: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (البقرة: 126)، فسيدنا إبراهيم عليه السلام اختار في دعائه صيغة الجمع (ثمرات) دون الإفراد (ثمرة) رغم أن الوادي الذي ترك أهله به واد مقفر، لا زرع فيه ولا ماء، وذلك لشدة عطفه وشفقته على أهله، لأنه متيقن من كرم الله وعطائه، فطمع أن يكون رزقهم متنوع الأشكال والألوان، ولعل ذكرها بالجمع لإفادة التنوع فيها حسب الفصول المختلفة، مما يدل على حرصه بأن يكون هذا الرزق مستمرا طوال العام بلا انقطاع، وقد لبى الله عز وجل طلبه.

وجاء الجمع هنا ليدل على الكثرة، حيث جاء في الكشاف "أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد بباب ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوته فجعله حرما آمنا تُجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على أخصب البلاد وأكثرها ثمارا". (الزمخشري، الكشاف، ج: 2، ص: 560).

وجاءت (ذريات) بالجمع في دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 128)، والجمع هنا فيه رغبة إبراهيم عليه السلام استمرار وامتداد التقوى في أجيالهم لأن "أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم وشايعوهم على الخير". (الزمخشري، الكشاف، ص: 1، ج: 186).

6.1.1. الإيجاز

الإيجاز من العناصر البلاغية المهمة التي تعتمد عليها العربية في كثير من مقاماتها، وهو في اللغة التقصير، يُقال أوجز في كلامه، إذا قصره، وكلام وجيز أي قصير. واصطلاحا: جمع المعاني الكثيرة تحت الألفاظ القليلة مع الإبانة والإظهار، كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف: 71)، فلو أردنا تعداد ما تشتهيه النفوس من المطاعم والمشارب والملابس، وما تلذ الأعين من مناظر الجنة لعجزنا عن ذلك. والإيجاز في الكلام يكون بالحذف أو القصر. وهو كذلك أن يكون المعنى زائدا على اللفظ، وهو نوعان:

إيجاز القصر: ويعبر فيه عن المعنى بعبارة قصيرة من غير حذف، كقوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة:179).

إيجاز الحذف: ويكون بحذف كلمة أو أكثر، مع قرينة يتبين بها المحذوف نحو: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف:79)، أي: كل سفينة صالحة، ونحو: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف:82)، أي أهلها. (عبد العزيز بن علي الحربي، البلاغة الميسرة، 2011، ص: 50).

والمتأمل للدعاء القرآني بشكل عام ولدعاء الأنبياء بشكل خاص يلاحظ انسجاما بين الإيجاز والإطناب يبين عن المعاني الواردة على ألسنة الداعين، في أسلوب يفيض بروائع البلاغة في البيان المعجز، وقد ناسب كل واحد منهما موضعه الذي وضع فيه، وأدى معناه بدقة كما يقتضيه السياق في تجانس بديع ونظم معجز.

ومن بين آيات دعاء الأنبياء التي جاء فيها الإيجاز بالقصر، حيث المعاني الكثيرة معبر عنها بألفاظ قليلة ما يلي:

جاء على لسان نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود:45)، فقوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ قول موجز، أي "إن ابني من صلبي فَرُدّه إلي ونجّه من العذاب، فهو من أهلي الذين أمرتني بحملهم إلا من سبق عليه القول كامرأتي لكفرها". (إبراهيم البقاعي، نظم الدرر، ج: 3، ص: 535).

وقد عبر نوح عليه السلام عن حبه لولده بهذا القول الموجز، لأن المقام الذي قيل فيه هذا الدعاء مقام شدة وكرب وقلق على الأهل والذرية.

وجاء أيضا على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم:37)، فقد عبّر إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ عن خلوّ هذا الوادي من مقوّمات الحياة، أي إن هذا الوادي الذي أنزل فيه زوجته وابنه عليهما السلام واد لا يصلح للسكن، لخلوّه من أهم ما يحتاجه الإنسان ليبقى على قيد الحياة، وهو الماء الذي هو مصدر حياة للنبات، وأنواع الزروع المختلفة التي منها يكون غذاء الإنسان. وفي وصف الوادي ب ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فيه دفع ما قد يتوهم السامع من أن يكون هذا الوادي واديا خصبا فيه ماء ونبات، لأن منها ما هو كذلك، وفي "ذكره الزرع، والاكتفاء به دون الماء، للدلالة على قفر هذا الوادي وجدبه بلاغة رائعة، لأن الماء قد يوجد في المكان ولا ينبت فيه نبات، لكن لا نبات دون ماء". (بهية اللحياني، الدعاء في القرآن الكريم، ص: 246).

ومن أروع صور قصر الإيجاز أيضا ما جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ (إبراهيم:40)، فقوله: (مقيم الصلاة) يحمل معاني عدة، فهو أراد أن يجعله الله مقيما للصلاة على أكمل وجه، مؤديا لها في وقتها، ومُتما لركوعها وسجودها، على الوجه المطلوب، كما يحب سبحانه ويرضى.

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ (القصص:16)، فقوله (ظلمت نفسي) فيه إيجاز لما أراده من أنه ظلم نفسه بإقدامه على ما لم يؤذن له فيه، من قتل القبطي انتصارا للإسرائيلي.

ونرى أيضا في دعاء نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (القمر:10)، أي إن قومي غلبوني بكفرهم، ولا حيلة لي في هدايتهم، فقد جاهدت في دعوتهم بكل الطرق والوسائل دون فائدة، حيث قابلوا دعوتي بالكفر والإعراض، فعاقِبهم يا رب وانتصر لدينك.

وفي قوله تعالى تعليما لرسوله الكريم محمد عليه الصلاة والسلام وللناس الدعاء لوالديه: ﴿وقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء:24)، يظهر الإيجاز في معنى التربية، فالتربية اسم جامع شامل لصنوف الرعاية والاهتمام المقدَّمة للولد، من عناية بطعامه وشرابه ولباسه، وتهذيب أخلاقه، وتعليمه وكل ما فيه رحمة بهذا الصغير. فحمل لفظ التربية كل هذه المعاني وأظهرها في الكلام كأنها مذكورة فيه.

أما آيات دعاء الأنبياء التي جاء فيها الإيجاز بالحذف حيث يكون "المحذوف إما جزء جملة أو جملة أو أكثر من جملة" (محمد بن عبد الرحمن جلال الدين الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح: محمد عبد المنعم خفاجي، 1993، ص: 185) فنذكر منها النماذج التالية:

جُل الأدعية التي وردت في القرآن الكريم عموما وأدعية الأنبياء خصوصا لا يكاد يُستخدم فيها حرف النداء (الياء) مع كلمة (رب) إلا في موضعين، وهما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (الزخرف:88)، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:30)، حيث شكا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه من قومه الذين كذبوه، وأعرضوا عنه وهجروا القرآن الكريم.

وقد حذفت أداة النداء في آيات الدعاء إما تنزيها وتعظيما لله تعالى، كما علل الكرماني هذا الحذف بقوله: "كثر حذف (يا) في القرآن مع الرب تنزيها وتعظيما، لأن في النداء طرفا من الأمر". (السيوطي، الإتقان، ج: 3، ص: 189) أو لكون حروف النداء التي تعد (يا) أم الباب تستعمل للبعيد، والله تعالى قريب من الخلق عموما، ومن الداعي خصوصا، لقوله

تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (البقرة:186)، وقد قال الدكتور أحمد بدوي في تعليل حذف الأداة: "لعل في ذلك تعبيرا عن شعور الداعي بقربه من ربه". (أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 130).

وكثر حذف المضاف إليه في الدعاء خاصة إذا كان المضاف إليه (ياء المتكلم) والمضاف (رب)، وتعليل ذلك: "أن كلمة (رب) لا تحتاج في نسبتها إلى المتكلم إلى تلك العلامة اللفظية (الياء)، فهو رب كل شيء، سواء أضيف أو لم يضف، وقد حرص القرآن الكريم على أن يستعمل هذه الكلمة محذوفا منها ضمير المتكلم المضاف إليه في أغلب مواضعها"، (عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، 1992، ج: 2، ص: 48) والأمثلة في دعاء الأنبياء كثيرة نذكر منها ما جاء على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾.(المائدة: 25)، والآيات في هذا الصدد كثيرة. (الشعراء: 12 و83، إبراهيم: 35 و36 و40).

وجاء الإيجاز بحذف الفاعل كما في دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إبراهيم:41)، أي "يقوم الناس للحساب، فاكتفى بذكر الحساب عن ذكر الناس إذ كان مفهوما معناه". (الطبري، جامع البيان، ج: 8، ص: 236).

ومن نماذج الإيجاز في الدعاء القرآني أيضا الإيجاز بحذف المفعول كما جاء على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ (الأعراف:151)، حذف هنا مفعول فعل (اغفر) لقوة دلالة الحس على تقديره، حيث يغلب أن يكون (ذنوبنا أو خطايانا)، فمن قوة تعلقه بالفعل في أغلب آيات الدعاء أصبح كالمذكور معه، ومعلوما في ذهن السامع.

وجاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ، وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ (الشعراء:12-13) أي "أرسل إليه جبرائيل واجعله نبيا، وآزرني به واشدد به عضدي، وقد أحسن في الاختصار" (الزمخشري، *الكشاف*، ج: 3، ص: 302) لكون المقام مقام شدة وضيق، واستعداد لمقابلة أمر عظيم.

ومن أمثلة ذلك أيضا دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات:100) ، وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ (إبراهيم:37)، حيث حذف المفعول به الذي تقديره (ولدا) في الدعاء الأول، و "جماعة أو رجلا أو قوما" (الطبري، *جامع البيان*، ج: 3، ص: 233) في الدعاء الثاني.

أما في الدعاء الذي أمر الله تعالى رسوله الكريم فيه بطلب الرحمة لوالديه كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء:24)، فقد حذف في هذا الدعاء المصدر المؤكد للفعل أي ارحمهما "رحمة مثل تربيتهما لي أو مثل رحمتهما لي". (محمد أبو السعود، *إرشاد العقل السليم*، ج: 5، ص: 167).

وجاء الحذف في بعض آيات الدعاء بحذف الجملة كما، في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ (الدخان:22)، فالحذف تقديره هنا " فانتقم منهم"، (أبو حيان الأندلسي، *البحر المحيط*، ج: 9، ص: 401) وكذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص:17)، في هذه الآية "يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف تقديره أُقسم بإنعامك علي لأتوبن". (الزمخشري، *الكشاف*، ج: 3، ص: 398).

يمكن القول مما سبق أن الإيجاز في دعاء الأنبياء يقع إما بتقليل الألفاظ وتكثير المعاني، وإما بالحذف كحذف حرف أو كلمة أو جملة، وأكثر أنواع الحذف هو حذف المفعول.

7.1.1. الإطناب

والإطناب في اللغة مصدر أَطْنَب، يقال أطنب الرَّجُلُ في الكَلاَم إذا أَتَى بالبَلاَغَةِ في الوَصْفِ مَدْحاً كَان أَوْ ذَمّاً ، وأَطْنَبَ في الكَلاَم: بَالَغ فِيهِ و أَطْنَبَ في الوَصْفِ إِذَا بَالَغَ واجْتَهَدَ.

وهو في الاصطلاح "أداء المعاني بألفاظ زائدة عليها لفائدة، وله طرق كثيرة منها، الإيضاح بعد الإبهام وذكر الخاص بعد العام، وذكر العام بعد الخاص، والاعتراض للتنزيه، والتذييل، والتكرار، والاحتراس، والاعتراض". (عبد العزيز الحربي، *البلاغة الميسرة*، ص: 52).

كما أنه تأدية المعنى المراد بلفظ زائد عليه لفائدة، وهو كل كلام زادت ألفاظه على معانيه لفائدة. (محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: علي شيري، د.ت، ج: 2، ص: 188) كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم:4)، فأصل المعنى المراد من سيدنا زكريا هو (رب إني قد كبرت)، حيث عبر عنه في الآية بألفاظ زائدة عن المعنى المراد، وهذه الزيادة ليست عبثا بل هي لفائدة، وهي إظهار الضعف وتأكيده.

والإطناب فيه مسألة يحددها المتكلم، وتكون حسب الحاجة، ووفق ما يقتضيه المقام، فكل منها مطلوب في موضعه وله أهميته، حيث "الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما في جميع الكلام، وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانته، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ". (أبو هلال الحسن العسكري، الصناعتين: النظم والنثر، 2008، ص: 190)

ومن أمثلة ذلك في دعاء الأنبياء نذكر ما يلي:

جاء في دعاء موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (طه: 25-26)، وفي هذا الدعاء زيادة كلمة (لي) وذلك أنه "في الكلام زيادة بيان، وإيضاح وتفخيم للأمر، وتعظيم له". (الزمخشري، الكشاف، ج: 3، ص: 61) وفي دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ (البقرة:127)، من الممكن أن يقال (قواعد البيت) على الإضافة، ولكن قولهما (القواعد من البيت) إيضاح بعد إبهام، وعدل عن الإضافة إلى ما هو مذكور"لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين". (الزمخشري، الكشاف، ج: 1، ص: 187).

ونجد أيضا من ضروب الإطناب الذي يتميز بذكر العام بعد الخاص، كأن يبدأ الداعي بذكر نفسه أولا، ثم من يهتم لأمرهم، كالوالدين والأتباع، وقد جاء هذا النوع على لسان إبراهيم ونوح عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ (إبراهيم:41) وفي قوله تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (نوح:28)، فالدعاء في الآيتين السابقتين بدأ فيه الداعي بنفسه وطلب لها المغفرة، ثم أتبع ذلك بذكر من لهم صلة كأبويه وأتباعه من أهل الإيمان.

ومن صور الإطناب أيضا التكرار، وقد كثر تكرار لفظ (ربنا) في آيات الدعاء، من ذلك دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيم، رَبَّنَا وَٱجعَلنَا مُسلِمَينِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّة مُّسلِمَة لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَينَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ، رَبَّنَا وَٱبعَث فِيهِمْ رَسُولا مِّنهُم يَتلُواْ عَلَيهِم ءَايَٰتِكَ﴾ (البقرة: 127-129)، وتكرار لفظ (ربنا) ثلاث مرات في هذا الدعاء يوحي بالمبالغة في الضراعة والاستعطاف، ويفيد تكرار النداء (ربنا) إظهار الضراعة إلى الله تعالى، وإظهار أن كل من هاته الدعوات مقصودة بالذات". (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 1، ص: 719).

أما في دعاء موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس:88)، ففي تكرار لفظ (ربنا) هنا تأكيد وتنبيه، "فتكريره للتأكيد وللإشارة إلى أنه المقصود، وإن ورد في معرض العلة، لأن ما قبله بث لسوء حالهم، توطئة لما بعده". (شهاب الدين الخفاجي، حاشية الشهاب، ج: 5، ص: 56).

ومن طرق الإطناب المستعملة في دعاء الأنبياء أيضا نجد التذييل، وهو "تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد، "ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (الممتحنة:5)، ففي قوله (إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ) تأكيد للجملة التي قبلها وتقريب للإجابة، أي"لأنك لا يغلبك أمر عظيم ولا يعزب عن علمك وحكمتك شيء". (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 1، ص: 724).

ومنه أيضا ما جاء على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأعراف:151)، وقوله عز وجل: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ (الأعراف:155). ومنه أيضا ما جاء على لسان عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (المائدة:114)، وعلى لسان إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء:83). فالآيات السابقة جميعا جاء التذييل فيها مؤكدا ومقررا لمضمون الجملة قبله.

ويعد الاحتراس والاعتراض أيضا من طرق الإطناب المميزة لآيات الدعاء، ومن أمثلة ذلك في دعاء الأنبياء في القرآن الكريم ما يلي:

جاء في دعاء نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قالَ رَبِّ إِنَّ قَومِي كَذَّبُونِ, فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الشعراء: 117-118)، فقوله (وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِين) احتراس، ذلك "لأنه طلب قبله أن يحكم الله بينه وبين قومه حكما شديدا أي يستأصلهم"، (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 19، ص: 173) فاحترس أن يصيبهم شيء من غضب الله.

ومما جاء في وسط الكلام قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ (نوح: 28)، فقوله (مُؤمِنا) احتراس منه عليه السلام "حتى لا يفهم أن زوجته وابنه ضمن من يطلب لهم الرحمة لأنهم ممن دخلوا بيته، فاحترس، وبذلك يخرج كل من ليس من صفته الإيمان من هذا الدعاء". (محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني، فتح القدير، 1414، ج: 5، ص: 359) هذا فيما يخص الاحتراس.

أما من أمثلة الاعتراض، وهو "أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب، لنكتة سوى ما ذكر في تعريف التكميل (الاحتراس)"، (الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج: 3، ص: 213) ومن أغراض هذا الاعتراض أن يكون للتأكيد نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: 129)، فإعادة النداء ربنا اعتراض لتأكيد التضرع رغبة في بعث الرسول فيهم.

من خلال ما سبق نرى أن صور الإطناب والإيجاز أتت في تآلف بديع، بل قد يردان في الآية الواحدة معا دون أن يُخل أحدهما بالآخر، بل يزيده وضوحا وبلاغة، فتظهر الآية في نمط فريد من الإعجاز، وتوافق وانسجام، موضحة المعنى على أكمل وجه.

8.1.1. القصر

ويرِد القصر في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ (البقرة: 127)، وفي الآية (إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ) قصر حقيقي باعتبار متعلق خاص، أي السميع العليم لدعائنا لا يعلمه غيرك، يفيد المبالغة في كمال الوصفين له تعالى". (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 1، ص: 20).

وفي قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (الممتحنة:4)، نجد أن في هذه الآية "تقديم حرف الجرّ على الفعل لإفادة القصر، وهو قصرٌ بعضه ادعائي وبعضه حقيقي كما تُصرف إليه القرينة". (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 1، ص: 347).

وكذا في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ربِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ (المائدة:25) فيه قصر، فموسى قصَر الإجابة إلى طاعة الله، وتنفيذ أوامره على نفسه وأخيه، والقصر في هذا الدعاء جاء بالنفي مع الاستثناء، وقيل "ليس القصد إلى القصر، بل إلى بيان قلة من يوافقه، تشبيها لحاله بحال من لا يملك إلا نفسه وأخاه"[3] بدليل أنه لم يذكر الرجلين اللذين أنعم الله عليهما، وقد كانا يوافقانه.

الخاتمة

للدعاء فضائل ومقاصد كثيرة تتجلى في كونه مخ العبادة، وأنه يجب المداومة عليه في الرخاء قبل الشدة، وأنه الوسيلة المثلى لتواصل العبد مع ربه دون تكلف ولا عناء. وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تحث عليه وتحض على الالتجاء إلى الله تعالى، حيث إنه ينبعث من الشعور والوجدان، فلزم أن يكون طبيعيا ليس فيه تكلّف.

وهذا لا يعني أنه لا يتميز بسمات وخصائص أدبية، حيث قمت بمحاولة استخراج تلك الأساليب البلاغية التي جاءت فيه، من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وإيجاز وإطناب، فخلصت إلى أن الناظر لظاهرة الدعاء في القرآن العظيم يأنس تعدّد صوره واختلاف أساليبه وتنوّع مستوياته، وأن قارئ الدعاء يشعر بسلاسة وهدوء آياته، وبساطة تركيبه، وتتميز الآيات بتركيب محكم، لو أراد القارئ أن يزيد أو ينقص من الألفاظ لاختل الكلام واضطرب، فلا زيادة في الألفاظ ولا نقصان.

وقد ساهمت الدراسة الأدبية للدعاء في ربط قواعد البلاغة والأدب بالنصوص البليغة، ولا سيما النص القرآني الزاخر بشتى الأساليب والصور البلاغية، يزيل عنها الجمود والجفاف، وتحيا الدراسة البلاغية وتزدهر، فتحقق أهدافها في تربية الأذواق وتنمية المواهب لمعرفة الإعجاز البياني للقرآن الكريم وتذوّق الجمال البلاغي في آياته.

وخلصت إلى تميز دعاء الأنبياء في القرآن الكريم بالبناء المحكم والصياغة المكثفة، والدقة في اختيار الألفاظ، ووضع المفردات في موضعها المناسب، واتسامه بالوضوح والجمال.

[3] الألوسي، روح المعاني، ج: 3، ص: 279.

المصادر والمراجع

ابن عاشور، محمد بن الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984).

أبو السعود، محمد بن محمد، ***إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم***، تح:عبد القادر أحمد عطا، (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د.ت).

أبو موسى، محمد محمد، ***خصائص التراكيب؛ دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني***، (مصر: مكتبة وهبة، 1996).

الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، ***روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني***، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1994).

الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف أثير الدين، ***البحر المحيط في التفسير***، تح: صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر، 1999).

بدوي، أحمد أحمد، ***من بلاغة القرآن***، (القاهرة: دار نهضة مصر، 1977).

البقاعي، إبراهيم بن عمر، ***نظم الدرر في تناسب الآيات والسور***، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ت).

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، ***دلائل الإعجاز في علم المعاني***، تح: الشيخ محمد رشيد رضا، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988)، 361.

الحربي، عبد العزيز بن علي، ***البلاغة الميسرة***، (بيروت: دار ابن حز2011).

الخضري، محمد الأمين، ***من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية***، (د، ط، 1994).

الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن جلال الدين، ***الإيضاح في علوم البلاغة***، شرح: محمد عبد المنعم خفاجي، (مصر: المكتبة الأزهرية للتراث، 1993).

الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر، ***حاشية الشهاب***، تح: محمد الصباغ، (مصر: دار الطباعة العامرة، 2000)، 198/6.

خوري، رئيف، ***الدراسة الأدبية***، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2017)، 11.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، ***معجم مفردات ألفاظ القرآن***، ضبط: إبراهيم شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، ***الكتاب***، تح: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1988)،34/1.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، ***الإتقان في علوم القرآن***، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974).

الشوكاني اليمني، محمد بن علي بن محمد، ***فتح القدير***، (دمشق: دار ابن كثير، 1414).

عبيد، محمد رشدي، ***قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم دراسة أدبية***، (السعودية: مكتبة العبيكان، 2006)، 12.

العسكري، أبو هلال الحسن ***الصناعتين: النظم والنثر***، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2008).

اللحياني، بهية بنت حامد، ***الدعاء في القرآن الكريم أساليبه ومقاصده وأسراره***، (السعودية: جامعة أم القرى مكة المكرمة، 2001).

المبارك، محمد، ***دراسة أدبية لنصوص من القرآن***، (بيروت: دار الفكر، 1998)، 135.

مدور، محمد،"***الدعاء في النثر الصوفي وخصائصه أمثلة وتحليل***"، Ex Professo ، 119، (2021): 1.

مرتضى الزبيدي، محب الدين أبو فيض السيد محمد، ***تاج العروس من جواهر القاموس***، تح: علي شيري، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت).

المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد، ***خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية***، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1992).